الكتابة وتفكيك ميتافيزيقا اللغة عند جاك دريدا

The writing and deconstructing the metaphysics of language with Jacques Derrida

د. معرف مصطفى [1*]

[1] أستاذ محاضر-أ-، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية /جامعة جيلالي ليابس /سيدي بلعباس(الجزائر)، مخبر الدراسات والأبحاث الفلسفية (إميل: musphilos@gmail.com).

تاريخ الاستلام: 2021/09/07 تاريخ القبول: 2021/12/23 تاريخ النشر: 2022/06/06

ملخص:

من منطلق سيميائي ودلالي بحت، يقوم فيلسوف التفكيك جاك دريدا بتفعيل، أدوات تقويض النسق الذي تشكلت من خلاله الميتافيزيقا الغربية، سيما نظرية العلامة. ويرى أنها تشكلت بالأساس، على مركزية العقل أو اللوغوس ومركزية الصوت (Logocentrisme، Phonocentrisme)، وحول فلسفة الذات والحضور التي تسيطر على الفكر الغربي. وهي المراكز التي تحقق نزعة الإعلاء من الذات المتسمة بالامتلاء أمام ذاتها، واستغنائها عن صورة المادة والجسد والعالم الخارجي عموما، تماما مثلما هي الكتابة التي اعتبرتها التقاليد اللسانية منذ اليونان وحتى دو سوسير، مجرد تقنية مادية وظيفتها تسجيل الكلام وإملاءات الصوت، وبالتالي تم احتقارها واعتبارها مجرد زائدة يمكن الاستغناء عنها، لأن طبيعتها المادية تشويه وتهديد لمثالية وشفافية الصوت، الذي هو أساس قيام علوم اللغة بحسب تلك التقاليد الميتافيزيقية.

كلمات مفتاحية: جاك دريدا، الغراماتولوجيا، التفكيك، العلامة الكتابية، ميتافيزيقا اللغة، الأثر.

Abstract:

From a purely semantic and semiotic standpoint, the philosopher of deconstruction, Jacques Derrida, activates the tools that undermine the system through which Western metaphysics was formed, particularly the sign theory. He believes that it was formed mainly on the centrality of the mind or logocentrism and phonocentrism, and around the philosophy of the self and the presence, that dominates Western thought. These centers achieve the tendency to exalt the self that is full in front of itself, and dispensing with the image of matter, the body, and the outside world in general, just as writing was considered by linguistic traditions from Greece to De Saussure as a mere material technique whose

* المؤلف المرسل: معرف مصطفى

function is to record speech and the dictates of sound. Consequently, it was despised and considered a mere addition that could be dispensed with, because its material nature is a distortion and threat to the idealism and transparency of the voice, which is the basis for the establishment of language sciences according to those metaphysics traditions.

Keywords: Jacques Derrida, grammatology, deconstruction, the written sign, the metaphysics of language, the trace.

1. مقدمة :

يتقدم مشروع دريدا التفكيكي لهذا الارث الميتافيزيقي والسيميائي، من خلال كتابه "علم الكتابة " أو الغراماتولوجيا" de la Grammatologie الصادر سنة 1967، والذي سيقوم من خلاله بإعادة النظر في مفهوم الكتابة ووضعها السيميائي كصورة مادية، محاولا تأهيلها كي تتأسس كعلم، معتبرا أن سبب تأخر الاهتمام بالكتابة وتفضيل الكلام، إنما يعود بالدرجة الأولى – حسبه– إلى الاهتمام المتزايد بالكلمة في اللسانيات المعاصرة. حيث عملت على انتقاء شكل معين من الكتابة هي الكتابة الصوتية، متجاهلة الانماط و الصور الكتابية الاخرى التي عرفها الانسان، وهو التقليد الذي عبرت عنه سارة كوفمان S.Kofman بقولها أنه" عبارة عن سمة ثابتة لتقاليدنا الغربية من سقراط إلى ليفي شتراوس مرورا بروسو و دوسو سير"(كوفمان، 1994، ص17).

فكيف مارس دريدا استراتيجية التفكيك في تقويض الميتافيزيقا الغربية، سيما مركزية اللوغوس والصوت وفلسفة الحضور، وكذا ما يتعلق بالدلالة اللغوية خصوصا؟ ماذا تمثل لديه العلامة الكتابية ضمن أفق الغراماتولوجيا أو علم الكتابة، في مقابل العلامة اللسانية التي تقوم على مركزية الصوت؟ وهل استطاع دريدا من خلال مشروعه التفكيكي وفلسفة الإختلاف، من تجاوز ميتافيزيقا اللغة في اشتراطاتها ومسلماتها الإبستمولوجية والمعرفية؟

2-ميتافيزيقا اللغة : بين امتياز الصوت و إدانة الكتابة.

تعد اللغة في عرف اللسانيين منظومة علامات اعتباطية، تخضع للتواضع بين افراد المجتمع في المقام الاول. كما أنّ اللغة والكتابة منظومتي علامات متمايزتين إذ" إن تمثيل اللغة هو العلة الوحيدة لوجود الكتابة" (دوسوسير، 1986، ص39) بتعبير فرديناند دو سوسير.

و اعتبارا، فان التصور العام لمفهوم الكتابة كما هو ماثل في التقاليد الميتافيزيقية منذ اليونان، وكما جاء في الأدبيات اللغوية و الفلسفية الغربية عموما، يحيلنا إلى استنتاج أن التفكير في الكتابة، جرى ضمن اعتبارها مجرد جسد ذو تمثيل مادي للكلام والصوت الذي هو من طبيعة مثالية، إذ يبدو أن دورها يتوقف عند حدود مرسومة بإحكام، لا تتعدى مستوى التمثيل والتسجيل لما يقوم الكلام بإنجازه، بعد أن تم ترسيخ المبدأ القائل بقرب الصوت من مثالية المعنى مثلما كان يعتقد أرسطو، و كذا من خلال التضامن المعقود لكل من اللوغوس ، والصوت وفلسفة الحضور.

هذا التضامن الميتافيزيقي عينه، هو الذي سيغدو الأساس الذي انبنت عليه علوم اللغة ونظرية العلامة، وهو التضامن عينه الذي سيعمل على إبعاد الكتابة واحتقار طابعها المادي الخارجي، وهو ذات التقليد الذي يعلي من مثالية المعنى والروح، ويحتقر المادة والجسد والصورة، وهو ما عبر عنه نيتشه من أن الرّوح كانت تتمنى الجسد ناجلا قبيحا جائعا متوهمة أنها تتمكن بذلك من الإنعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها.

وهكذا، فهناك " تقارب مطلق بين الصوت والوجود، بين الصوت ومعنى الوجود، بين الصوت ومثالية المعنى" (Derrida, 1967, p23)، يقول جاك دريدا Jacques Derrida، إذ و تبعا لذلك، يتأسس النسق الذي تشكلت من خلاله الميتافيزيقا الغربية بالأساس على هذه المراكز الملتفة حول اللوغوس Logocentrisme والصوت Phonocentrisme وحول فلسفة الذات والحضور، التي تسيطر على الفكر الغربي منذ ديكارت، وهي المراكز التي تحقق نزعة

الإعلاء من الذات المتسمة بالامتلاء أمام ذاتها، واستغنائها عن برّانية المادة و الجسد و الصورة والعالم الخارجي عموما، في مقابل تحققها الجواني الداخلي متآلفة بذلك مع مثالية الصوت.

إن التمركز حول الصوت، هو التقليد الأكثر امتدادا وترسخا في تاريخ الفكر و الفلسفة و علم الدلالة، و ذلك اقتداءا بسقراط Socrate الذي لم يكتب، وإنما كان مثال الكلام وفن الخطابة، الذي كان سقراط يلجأ إليه لإثبات براعته في الجدل وتوثيق فن التوليد الذي مارسه لتقنين امتياز لغة الكلام وأفضلية الصّوت، حتّى اعتبر " الصّوت نموذج كل حقيقة بامتياز" (Raymond, 2001, p58) ، لأنه يشكل حلقة مباشرة مع الأذن متمثلة في السّمع والفهم ؛ إن الصّوت يثبت نفسه في استبطان ذاتي، ويمتاز بالتحقق المباشر وامتلاءه في ذاته وبحضوره في ذاته، بينما التمركز العقلي اللّوغوسي فسيكون متضامنا مع تحديد الوجود والموجود كحضور.

أما التمركز حول اللوغوس، فيعد الكتابة مجرد آلة أو أداة لتمثيل ما هو أصلي وجوهري أي الكلام، سيعمل على انصياع كتابة طيعة تتماشى وفرضيات اللسانيات، وتنقاد نحو تأكيد مسلماتها ممثلة في الكتابة الصوتية، فهناك حسب دريدا وفي فترة تاريخية ولادة تواطئ ما بين علم اللاهوتThéologie، ومركزية اللوغوسLogocentrisme والنزعةالتقنية Technicisme. لذلك، انساق دوسوسير على ما يبدو وراء أفكار روسو حول اعتبار الكتابة وسيلة خداع لا تعمل إلا على إضعاف التعبير، عكس الكلمة الملفوظة التي تم اعتمادها في اللسانيات باعتبارها تمثل الشكل الأكثر تأصيلا والأكثر طبيعية للغة.

بهذا، يغدو " تاريخ الميتافيزيقا هو الإرادة المطلقة للإنصات إلى الذات" (Derrida, 1967, p155)يقول دريدا، وهو ذات التوجه الميتافيزيقي الذي سيستمر أيضا مع الفلسفة الفينومينولوجية Phénoménologie لهوسيرل Husserl التي ترى أن الحضور الممتلئ للوعي هو جعل الحقيقة الخارجية بين قوسين أي تعليقها، فهو تعبير عن إرادة القول كمناجاة

باطنية بحتة، وبالتالي فالفينومينولوجيا هي الأخرى، تستمر برأي دريدا ضمن هذا الامتياز المعقود للصوت المتضامن مع جوانية المعنى، أو ما سماه دريدا بالمدلول المتعالي Signifié transcendantal ، ومع فلسفة الحضور مقابل إهمال خارجانية الكتابة وطابعها المادي، وهو ما يفسر اهتمام دريدا بهوسيرل أكثر من اهتمامه بأي فيلسوف آخر، كونه الممثل المتكامل للمثالية المتعالية و فلسفة الذات و الماهية.

يعمل دريدا منذ البدء، على محاولة إيجاد وضع جديد للكلمة mot " لأنها كانت تمثل الوحدة الأولية و غير القابلة للتفكيك بين المدلول و الصوت، بين المفهوم و مادة تعبيرية شفافة" (دريدا، 1988، ص122)، معتبرا أن سبب تأخر الاهتمام بالكتابة و تفضيل الكلام، إنما يعود بالدرجة الأولى – حسبه– إلى الاهتمام المتزايد بالكلمة في اللسانيات المعاصرة، التي عملت على انتقاء شكل معين من الكتابة هي الكتابة الصوتية، هذه الكتابة التي هي بمثابة الوسط الذي تحققت فيه مغامرة الغرب الميتافيزيقية و العلمية و التقنية و الاقتصادية، وهذا الوضع المعرفي و الابستيمي هو ما سماه دريدا تحديدا بعصر تضخم العلامة.

إن هيمنة نظام الصواتة phonè، يعود للامتياز المعقود في تاريخ التصور الغربي للغة، كوحدة للصوت والكلمة، يعمل على الاستجابة للحظات اقتصاد في تاريخ الميتافيزيقيا الغربية، وهو الاقتصاد الذي يتعلق بالحياة والتاريخ والوجود، باعتبارها تشكل علاقة مباشرة بالذات، ومحققا في الوقت ذاته رغبة المرء سماع نفسه عبر مادة صواتية شفافة، تتقدم كدال جواني مستبطن داخليا، في مقابل خارجانية وجسدية الكتابة وطابعها التمثيلي التقني.

في خضم هذا الأفق الميتافيزيقي واللغوي المتآلف مع نظام الصوت، فإن دريدا سيعمل على تفكيك العديد من المفاهيم مثل: اللغة langage المعنىSens، الوعي Conscience ، الذات Soi، الهوية Identité، الحقيقة Vérité ... ويعدها خاضعة بالأساس لنمط تصور ميتافيزيقي للزمان الملتف حول" *الأنطولوجيا الكلاسيكية للحضور* ، ويعتقد دريدا أن الوجود كحضور هو القاسم المشترك بين تلك المفاهيم الفلسفية ، اذ هو يمثل " *تقارب*

مطلق للهوية مع الذات" (Derrida, 1972, p22)، وهي الميتافيزيقا التي واجهت انتقادات كبيرة من قبل العديد من الفلاسفة والمفكرين من أمثال: نيتشه Nietzsche ، فرويدFreud ، لوفيناسLevinas ،تحت ما عرف بنقد الحضور في الذات للوعي، والذي على إثره قام الطرح الميتافيزيقي لتصور الحقيقة داخل اللوغوس.

إن جميع التحديدات الميتافيزيقية للحقيقة بما في ذلك الذي يذكرنا به هايدغر في ما وراء اللاهوتانية الميتافيزيقية للوجود، هي بقدر من المباشرة يكثر أو يقل غير قابل للفصل عن هيئة اللوغوس أو على الأقل عن عقل مفكر به في انحدار اللوغوس، وبهذا فإقصاء الكتابة وإدانتها راجع بالأساس إلى شكل تصور الحقيقة كتطابق للفكر مع مقولات اللوغوس، واعتبار الكلام سابق على الكتابة، و الأصل والأساس في تأسيس المعنى، بينما الكتابة، تنحدر إلى مجرّد *تقنية في خدمة اللغة*، و يتوقف دورها في حفظ ما يقال كتابيا حتى لا يندثر مع مرور الوقت.

أمام هذا النسق الميتافيزيقي المغلق، قامت هناك محاولات عديدة تهدف إلى تجاوز وتفكيك هذه الميتافيزيقا خاصة مع نيتشه في نقده للمفهوم الفلسفي، واعتبار الحقيقة الفلسفية مجرد استعارة métaphore ومجاز، وكذا مع فرويد في نقده للحضور في الذات، أو بصفة أكثر عمق وراديكالية ما قام به هيدغرHeidegger في هدميته Destruction لأنطولوجيا الوجود التي تحدده كحضور، وتفرقته بين الوجود والموجود étant / Etre . إن هذه المحاولات ورغم طموحها في تجاوز الميتافيزيقا إلاّ أنها بقيت-برأي دريدا-في نفس الدائرة المغلقة للميتافيزيقا، طالما أنها استعملت نفس اللغة، ونفس المفاهيم والمصطلحات التي تقوم عليها هذه الميتافيزيقا، وهذا ما حذا به إلى القول أنه" ليس هناك أي معنى من المرور بمفاهيم الميتافيزيقا لأجل خلخلة الميتافيزيقا' ذاتها (Derrida, 1967, p41)، لأنه ليس في متناولنا لغة، أو تركيب، أو نحو، يفلت من الدائرة التاريخية للميتافيزيقا.

وفي نفس التوجه الميتافيزيقي، نجد أن فرضيات الميتافيزيقا الغربية التي انبنت أساسا على الثنائيات المتقابلة، تعد كلا من الكلام و الكتابة مفهومين يقيمان ضمن تلك المقابلات بشكل من الاشكال، و هذه الرؤية تمثل شكل الميتافيزيقا الأكثر تجذرا، لأن كل الميتافيزيقيين، مثلما يعتبر دريدا انتهجوا منذ أفلاطون إلى روسو، من ديكارت إلى هوسيرل مسلمة: الخير قبل الشر، الموجب قبل السالب، البسيط قبل المركب، إنه ليس مجرد حركة ميتافيزيقية من بين أخريات، هو التماس ميتافيزيقي الأكثر استمرارية، الأكثر عمقا والأكثر قوة (Derrida, 1990, p174).

لذلك، يعتبر دريدا أن تاريخ الكتابة دخل في صراع شبه عدواني مع علم اللغة المتماهي مع هذه الثنائيات الميتافيزيقية، وهذا ما عبر عنه دريدا بالعنف القائم بين الكلام والكتابة: (الكلام / الكتابة.)

هذا الصراع، لم يفسح المجال أمام أي تضامن ممكن بينهما، وهذا الشرخ القائم في تاريخ الكتابة أمام اللغة، يبين النفور شبه اللاواعي عن الكتابة بسبب ما يمكن نعته بالتواطئ الأكثر صلابة واستمرارية في تاريخ الميتافيزيقا، التواطئ الذي مكن مركزية الصوت واللوغوس من الاستيلاء على الاهتمام العلمي اللغوي، وتقزيم الكتابة في حدود هامشية وثانوية لتمثيل الكلام.

مثل هذا الإجراء الذي انتهجه علماء اللغة، زيادة على نعته بالتقصير، فإنه يمثل،براي دريدا، تبعية عمياء خلال كل تاريخ الفلسفة والميتافيزيقا الغربية التي انتهت إلى اعتبار الوجود حضورا، وأعطت امتيازا صلبا للصوت على حساب الكتابة، وهذا ما حذا باللغة واللسانيات إلى الاستمرار داخل نفس المنطق ونفس التقاليد التي غرستها الميتافيزيقا الغربية المتجذرة والمتمركزة حول الصوت واللوغوس phonologocentrisme .

ففي خلال كل تاريخ الميتافيزيقا-يقول دريدا-جرى تقزيم الكتابة ليس فقط عند أفلاطون، روسو، هيجل، بل وحتى سيرل الذي انتهج تعريفا ضيقا الكتابة كتدوين أو تمثيل للكلام. وهذا المصير الذي لاقته الكتابة سيستمر أيضا مع دو سوسير والذي ينعت الكتابة

بالمغالطة، وأنّها *تحجب الرؤية عن اللغة، فهي ليست ثوبا بل قناع تنكري*، وهو فوق هذا يخبرنا أنه يبحث من خلال نبوءاته عن علم اللسانيات التي ضمنها في كتابة " الدروس" أنه يبحث عن " عون يمكن اللسانيات أن تستمده من هذا العلم للإفلات من أوهام الكتابة" (دوسوسير، 1986، ص50).

الكتابة ها هنا، تمثل من منظور دو سوسير، الزيف والخداع الذي يهدد تماسك ووحدة اللغة المنطوقة وتحققها لدرجة أن دي سوسير يحذر مما أسماه بجبروت الحرف بسبب *طغيانه وفرض ذاته على الجمهور فإنه يؤثر في اللغة ويبدلها*، وهذا ما حذا به إلى البحث عن كتابة تستجيب لمتطلبات النسق الذي إنبنت عليه الشروط والفرضيات الأبستمولوجية للسانيات: إنها الكتابة الصوتية.

3- فلسفة الاختلاف وتفكيك التمركزات الميتافيزيقية :

جراء هذا الإرث الميتافيزيقي، فإن مشروع دريدا لا يريد أن يكون مجرد نقد للمفاهيم على طريقة كانط Kant، أو رغبة في إصلاح أو تكييف الميتافيزيقيا ، و لكن استراتيجية حذرة و غير آمنة في التعامل مع النصوص، إنها الاستراتيجية التي تعتمد على التفكيك Déconstruction بدفع فاعليته إلى تقصي ميزة الامتلاء و الإطلاقية التي تسم المفاهيم الفلسفية، بغية الوقوف على الغموض الذي يرافق العديد من هذه المفاهيم، مثل مفهوم الفارماكون لدى أفلاطون و مفهوم الزيادة كما تمثل في فلسفة روسو ، " إنها مغامرة ترمي إلى البحث و التنقيب، حيث سيتم من خلالها مساءلة مجموعة حقائق و مفاهيم و دلائل أضفى عليها الفلاسفة على مر العصور صبغة القداسة"(غيوة، 2002، ص185).

انطلاقا من هذا الوضع الميتافيزيقي، سيعمل مشروع دريدا إذن على تبيان وكشف زيف اطلاقية ووثوقية المفاهيم الفلسفية، ونقد فلسفة الحضور، وتفكيك مركزية الصوت ومركزية العقل هذا " العقل الذي هو قوة جسيمة، تصبح جد جسيمة حتى يغدو القوى أمامها لا شيء" (ياسبرز، 1988، ص56) بتعبير كارل ياسبرز.

من خلال استراتيجية التفكيك، يحاول دريدا الذهاب بعيدا لإجتراح عمق حقيقة الميتافيزيقا، بزعزعة وخلخلة الطروحات والفرضيات التي أنبتت عليها هذه الميتافيزيقا، إقتفاءا بما عمله هيدغر وهدميته destruction وبحثه في إشكالية أنطولوجيا الوجود، وكذلك تأثره بفلسفة نيتشه في حرصه على تأكيد مفهوم الحقيقة كتجربة حية مرادفة للحياة، ولبراءة الصيرورة.

ففي سياق الحديث عن مفهوم الكتابة كما تصورته الميتافيزيقيا، وكما تمثلته مختلف النزعات الفلسفية نقف على نتيجة مبدئية، وهي أن التفكير في الكتابة، جرى داخل منظومة تصورات تيولوجية وفلسفية، تتأرجح تارة بين تقزيم وازدراء الكتابة ونعتها بالدونية والمادية في مقابل الامتياز والمعقود للصوت، وتارة أخرى اعتبارها مجرد عارض، أو ظاهرة تقنية لتمثيل ما أنجزه الكلام.

سيقوم عمل دريدا على إزاحة القناع عن الميتافيزيقا الغربية، بهدف كشف تناقضاتها و عدم كفايتها و ذلك بانتهاج إستراتيجية التفكيك Déconstruction التي يرمي من ورائها إلى تقويض الثنائيات التي أرستها الفلسفة الغربية، بدءا من أفلاطون ووصولا إلى دي سوسير، ومن ثم خلخلة الأسس والفرضيات الميتافيزيقية التي انبني عليها الفكر والفلسفة الغربية و علوم اللغة، خاصة في المستوى الأنطولوجي حيث اعتبر الوجود حضورا مرتبطا بالوعي، ثم التمركز المعهود لكل من اللوغوس والصوت phonocentrisme/logocentrisme ، ومن ثم محاولة دريدا تجاوز منطق الثنائيات الميتافيزيقية" بوجوب البحث عن مفهومات جديدة ونماذج جديدة، عن اقتصاد يفلت من نسق هذه المقابلات"(دريدا، 1988، ص153).

وإذا كانت فاعلية التفكيك، تهدف إلى تقويض الميتافيزيقا الغربية، وخلخلة المسلمات والمنطق الذي انبنت عليه، فإن ذلك يتم ضمن استراتيجية تعمل على إرجاع المفاهيم المفككة إلى أعماق فلسفية أثبتت بلادته، أي برهنت على عجزها عن الخروج من نفق المتاهة المفاهيمية.

لهذا، يتصور دريدا إمكانية إحداث قطيعة مع هذا الإرث الميتافيزيقي بفسح المجال لفلسفة أخرى هي فلسفة الاختلاف différance التي تفعل من طاقة الكتابة و العلامة الكتابية، فالتفكيك كاستراتيجية، يتعين عليه بواسطة حركة مزدوجة وعلم مزدوج أن يقوم بعكس المقابلة الكلاسيكية وبنقل عام للمنظومة أي منظومة المقابلات الميتافيزيقية القائمة أساسا على منطق التعارضات بين الثنائيات المشكلة لبنية التفكير الغربي: الوجود مقابل العدم، الحضور مقابل الغياب، الخير/ الشر، الجسد/ الروح، الكلام في مقابل الكتابة وهكذا، أي العمل على تحاشي الميتافيزيقا المبنية على التفاوتات الترابية التي أقامتها الميتافيزيقا، ومنطق المقابلات التبسيطي الذي كانت الكتابة إحدى ضحاياه، بالبحث عن وضع جديد ومغاير لتصور مفهوم الحقيقة/العلامة ذاتها.

تسعى منظومة الدلالة الغربية، لتكرار نفسها في حقل تصور معيّن لإمكانية الحقيقة والمعنى، كتماثل وتطابق مع اللّوغوس ومنطلقاته. فالدلالة بهذا، تستمر من خلال هكذا التفاف حول نزعة التمركزات العتيقة: التمركز حول الصّوت، والتمركز حول العقل أو اللّوغوس، لذلك ستتقدم استراتيجية دريدا باعتبارها خلخلة وتفكيكا لكل المعاني التي تستمد منشأها من اللّوغوس، وبالخصوص معنى الدلالة والحقيقة.

4-الكتابة البدئية و سيميائيات الأثر:

إذا كانت حقبة اللوغوس Logos تحطّ من الكتابة، فذلك لان تاريخ الكتابة كما انتهى إلى ذلك دريدا هو تاريخ تقنية الكتابة، أي الكتابة منظورا إليها كأداة، وكتقنية مرادفة لمعنى استعمالي، يتعلق بتنفيذية الكلام تحديدا ومحكومة بنموذج الكتابة الصوتية، التي ترى في خطية الكتابة وطابعها الغرافيكي Graphique، الشكل الملائم لتصور الميتافيزيقا الغربية لطابع العلامة وأنموذج التدليل: الكتابة كمجرد دال لدال أصلي الذي يتم من خلال مثالية الصوت الذي اعتبر أقرب ما يكون إلى المعنى.

يبدو أن الدال المكتوب signifiant écrit، كما هو ماثل في تقاليد الكتابة الصوتية والأبجدية، سوف يعمل على تأدية مهمة تثبيت شكلي لمعنى مثالي، يتحقق بشكل فعلي مستقل عن هذا الدال المكتوب، فالمعنى ملتف حول الصوت وجوانيته، أي في ارتداده إلى الداخل واكتفائه بنفسه في إنتاج معنى المفهوم، وحضور الذات الفاعلة في ذاتها.

المعنى، كما ترسخ في التقاليد اللغوية واللسانية المعاصرة، هو في حقيقته وليد لحظة بنوماتولوجية pneumatologique، وهي اللحظة المتعلقة بالروح والنفس الإلهي التي تبرر شكل الوجود كحضور ممتلئ للكلام الإلهي، الموجه إلى شعورنا الجواني العميق. إن نموذج تصور المعنى وتشكله من خلال هذا الاستعلاء والاكتفاء الذي يحققه الصوت وامتياز الكلام parole سوف لا يدع أيه إمكانية أمام الكتابة إلاّ في الحدود التي رسمها المنطق المتمركز حول اللوغوس والصوت، وهكذا سوف ترتد الكتابة إلى مجرد نقش أو خط لما تمّ إنجازه وتمثيل وتسجيل لما يعبر عنه الكلام وتنجزه مثالية المعنى.

إن شكل الكتابة الكتابية Graphique هذا، هو بالتحديد الشكل الذي سيعمل دريدا على إبراز سذاجته ، ويسميه بشكل الكتابة المبتذل، بينما يعتقد دريدا على العكس من ذلك "*أن اللغة المنطوقة تابعة للكتابة*"(Derrida, 1967, p24)، في مقابل كتابة كتابية تعمل في الأنساق الكتابية، كتجسيد مادي خارجي يخدم أسس الميتافيزيقا القائلة بثانوية الكتابة، التي تسقط في الخارجانية التقنية والمادية، كتأكيد على استمرار محاصرة دور الكتابة في هذه الخدمة الزائدة Supplémentaire ، الكتابة الكتابية التي تترجم شكل المعرفة الذي تبتغيه فلسفة اللغة واللسانيات وتقاليد الفكر الغربي كنتاج للإيعاز الذي تمليه الميتافيزيقا ، خاصة في شكلها المتمركز حول اللوغوس والصوت وفلسفة الحضور، إن دريدا لطالما استغرب من هذا المصير الذي لاقته الكتابة طوال تاريخها ناعتا إياه بشكل الكتابة المبتذل والساذج الذي يجب تجاوزه، إلى مفهوم آخر للكتابة ينبع من مفهوم الجراماتولوجيا: إنها الكتابة الأصلية أو البدئية archi-écriture التي تفسح مجال الغراما(الكتبة)كوحدة للكتابة و الاثر.

إن دريدا إذ يعتبر الكتابة في الجراماتولوجيا أصلا للعلم وللتاريخانية من خلال تأسيس علم الكتابة، فإنه يتصور ذلك بطرحه لمفهوم كتابة تكون سابقة على الكلام سببا لوجوده أيضا، هذه الكتابة هي ما يعرف بالكتابة الأصلية، خلافا لما كان يؤسس فهم الكتابة داخل تقاليد الميتافيزيقا كشيء يأتي دوما بعد الكلام.

يتصور دريدا، مفهوم الكتابة الأصلية للدلالة على أن الكتابة لا تأتي بعد الكلام أو هي مجرد تمثيل له، إنما سيعمل على تفكيك وتجاوز هذا المنطق الذي هو في أساسه منطق ثنائي متعارض، " إن الكتابة الأصلية تمثل التصور الجديد الذي يتجاوز الضرورة التي أملتها إجراءات استعمال المفهوم المبتذل للكتابة، وأن مفهوم الكتابة من منظور تاريخي لم يتسن له بعثرة مفهوم الكتابة الأصلية إلاّ لإقامة الكلام الممتلئ وتجسيد واختزال الاخ (ت) لاف différance" (Derrida, 1967,p83)، وهكذا يبدو أن التأسيس لنظرية الكتابة الأصلية ستغدو مفتاحا لفهم ترسيم علم الكتابة، ذلك أن الكتابة بهذا المعنى، هي أصلية originaire،أو كما عبّر عنه دريدا، دوما- مسبقا- هنا، Toujours- déjà-la.

الكتابة الأصلية، لا تسعى لأن تكون أصلا للوجود، سيما وأن دريدا عمد منذ البداية في استيراتيجية تناوله للإرث الفلسفي الغربي، إلى تفكيك فكرة الأصل Origine كفكرة ميتافيزيقية، فالكتابة الأصلية البدئية" *هي نفسها ما لا يمكن اختزالها إلى شكل الحضور* تجاوزا لميتافيزيقا الحضور (Derrida, 1967,p83)، إذ إن فكرة الكتابة الأصلية لا تقدم نفسها كأصل، وإنما كل ما تمثله هو كونها تتقدم كشكل للوجود، أو كبنية يشكلها الأثر الأصليarchi-trace ، أي أن هذه الفكرة تجد سندها النظري على الاقل، ضمن اعتبارات منطقية تسهم في بلورتها وصياغة طابعها الشكلي، طالما أن دريدا نفسه يتحاشى فكرة الأصل، سيما في انحدارها الميتافيزيقي.

في عملية زحزحة للتراتبية الميتافيزيقية، التي توزع الأدوار، دور الكلام، ودور الكتابة، يقوم دريدا بإحداث منطق آخر لا يكون فيه الصوت والصواتة هما الأصل في تكون المعنى

واللغة، بل الجرافيك أو المنطق الخطي الكتابيGraphique الذي أساسه الكتبة Gramma،ويصبح بهذا *المنطق الخطي المنطق الخاص لفلسفة الكتابة كاخ (ت) لاف وليس للوغوس كحضور*، إن هذا المنطق الخطي الدريدي يمثل إرادة تحرير الكتابة من تبعية اللوغوس و الأنطولوجيا وفتح أفقها الذي هو تدشين للجراماتولوجيا أي الكتابة كعلم، علم الكتابة الذي يريد دريدا انتشاله من التمركزات الميتافيزيقية التي اختزلت الكتابة في حدود تمثيل تقني مادي للكلام.

لهذه الاعتبارات، يمثل دو سوسير في منظور دريدا امتداد تخوف الفكر الغربي منذ اليونان، من الطابع الخارجي للكتابة/الصورة واعتبارها كيانا حساسا يمكن التأثير فيه بسهولة مثله مثل اي جسد، وهو ما عبر عنه دريدا في الغراماتولوجيا بقوله" الكتابة Ecriture، الحرف Lettre، التسجيل المحسوس inscription sensible كانت دائما معتبرة بحسب التقاليد الغربية كجسم ومادة خارجيان عن الروح ، عن الفعل وعن اللوغوس " ، ولطالما شبهت الكتابة ولهذه الاسباب المتعلقة بطابعها الخارجي والجسماني المادي بأنها قذارة *الأكثر خطورة، الأكثر نفاقا والأكثر دوام* في تاريخ الميتافيزيقا التي لم تتوقف عن تهديد وإفساد الصفاء الذي تتمتع به اللغة.

من جهة اخرى، فإن روسوRousseau بدوره ومن خلال كتابه " مقال في أصل اللغات"، يعلي من شأن ما يسميه بالكتابة الطبيعية الإلهية التي هي عنده أصل القيمة وصوت الوعي بما هو قانون إلهي، فهي من طبيعة متعلقة بالروح والنفس الإلهي أي بنوماتولوجية ، في مقابل كتابة منحطة، كتابة تمثيلية تصويرية ذات طبيعة غراماتولوجية ، ماهي إلاّ مجرّد *محلق بسيط بالكلام*، وفي نفس سياق روسو يتقدم هيجلHegel أيضا كأحد المثاليين الذين يقيمون في الانحدار الميتافيزيقي لمركزية اللوغوس المتجاور مع مركزية الصوت، حتى أن فلسفة هيجل عدت في الأخير كأرخنة للوغوس.

أما بالنسبة لأفلاطون، فإن دريدا يخصص له دراسة مطولة في الصيدلية ، يقوم من خلالها بتتبع الخلفيات الميتأفيزيقية وراء إدانة أفلاطون للكتابة وذلك بتحليله لأسطورة تيوت

Theuth كما جاءت في مؤلف أفلاطون" الفيدروس" Phèdre ، حيث ان هذه الأسطورة وبعيدا عن أن تكون موضوعا لعلم ما، فهي فقط حكاية متلوة وأسطورة مكررة، إلا أن أفلاطون فوضها ببساطة لان تكون أصلا للكتابة بعد أن أقام محاكمة مشهورة لها قام من خلالها أفلاطون بدس كلامه الخاص وإسماعنا بخفاء البلبلة التي اخترقت الإرث الفلسفي من أقصاه إلى أقصاه، وتاريخ الميتافيزيقا بكامله.

استطاع دريدا، من خلال قراءاته للفيدروس أن يكشف ما سماه" بلعبة أفلاطون السهلة" (دريدا، 1998، ص08)، اذ ان أفلاطون استخدم الحيلة البارعة المتمثلة في الزعم بأنه لا يقوم بأكثر من إعادة تسجيل كلام أستاذه سقراط، في حين أن أفلاطون كان يقوم بإحياء سقراط حين أعاد كتابة أقواله التي ضمنها في الأسطورة، وكان في الوقت نفسه يقتل سقراط حين سمح لنفسه باختراق قانون سقراط العتيق في تحريمه للكتابة: فسقراط هو الفيلسوف الذي لم يكتب.

وهكذا، فصيدلية أفلاطون تأسست على مبدأ الكتابة بوصفها السم الذي يقتل ويعالج، أي بوصفها ترياقا pharmaKon، الكتابة تتعارض مع اللوغوس كما يتعارض الظاهر مع الحقيقة، "إن الكتابة والمعرفة الميتة والجامدة، المكنونة في الأوراق المكتوبة، والحكايات المتراكمة والسجلات والوصفات والصنع المحفوظة عن ظهر قلب، هذا كله غريب عن المعرفة الحية والجدل غرابة الفارماكون على علم الطب وغرابة الأسطورة على المعرفة" (Derrida, 1972, p81) ، فالكتابة كانت تمثل الانقطاع والابتعاد عن الأصل، أصل المعرفة كتذكر خالص عند أفلاطون.

لقد تم، وضمن استمرار نسق الثنائيات الميتافيزيقي، اعتبار أن هناك كتابة حسنة وأخرى سيئة: الكتابة الحسنة والطبيعية، الخط الإلهي في القلب والروح، والكتابة الفاحشة المصطنعة، التقنية والمنفعية في برانية الجسد، وانتهى دريدا إلى توضيح أن صفة اللاتحديد أو صعوبة التقرير indécidabilité التي تصاحب مفهوم الفارماكون كما جاء بها أفلاطون في

محاورة الفيدروس، قابلة لان تعيق مجموع القرائن الأفلاطونية، سيما الحركة الميتافيزيقية، تماما مثلما أعاق السم ذات يوم أب الفلسفة سقراط.

يمكن القول، أن محاولات أفلاطون إظهار الكتابة كفارماكون، أي كاحتيال وخداع وغموض، يرادف الطابع المزدوج لهذا المفهوم باعتباره سما ودواء في آن واحد، كانت دائما أو بتعبير دريدا دوما مسبقا Toujours déjà معاقة بمرجعيتها إلى الفارماكون ذاته، لأن الفلسفة التي كان دورها الطمأنة عكس الكتابة، سوف تسعى إلى طرد هذه الكتابة الفارماكون، كونها تمثل التهديد الحقيقي للفلسفة ولميتافيزيقا الحضور التي هي رغبة *الحضور، كرغبة من المستحيل إشباعها*، كونها تمثل الحلم بالحضور المطلق.

5-العلامة الكتابية وتحرير الأفق الدلالي:

يبدو طموح دريدا من خلال فلسفة الاختلاف، وتفكيك فلسفة الحضور و ميتافيزيقا الصوت ،الى محاولة تحريره للغة من وضعها الميتافيزيقي القديم بتأهيل العلامة الخطية التي تكمن طاقتها بتعبيره في *تفجير الأفق الدلالي* ، عاملا على تجاوز الوضع اللغوي واللساني الذي ينزع نحو امتياز الصوت ويتضامن مع اللغة المنطوقة والعلامة اللسانية ، تماما مثلما ذهب إلى ذلك إدوارد سابير (1884-1939) E.Sapir حينما صرح أن :" اللغة الصوتية لديها السبق عن جميع أشكال التواصل الرمزي والتي بالنسبة لها، لا تمثل إلاّ تنفيذات بديلة مثل الكتابة أو الإيماءات التي ترافق الكلام"(Sapir, 1968, p30).

فما هي المكانة التي ستحتلها العلامة الخطية في مشروع دريدا الدلالي، وكيف سيفك مفهوم العلامة كما جاء عند دي سوسير، وهوالذي أعلن في الجراماتولوجيا من أن استراتيجية العامة للتفكيك تهدف إلى تدمير مفهوم العلامة ومنطقها كله. سيما وان اللسانيات وعلوم اللغة تعتبر أن " *الصورة الكتابية تعمل كدال والفونيم كمدلول*"(Jakobson, 1976, p77).

يدفع دريدا بفاعلية التقويض إلى حدودها القصوى، و ذلك لتقصي وكشف المتكآت النظرية، والفرضيات التي انبنى عليها تصوّر مفهوم العلامة اللسانية، وينتهي إلى استنتاج أن

هناك تواطئ وامتداد ميتافيزيقي مستمر يلتف حول مركزية الصوت وهو ما يفسر أيضا الاهتمام المتزايد بعلم الأصواتphonologie كما تجلت مع أبحاث تروباتسكوي(1866-1938)Troubetzkoy ، أندري مارتيني(1908-1999) André Martinet وغيرهم زيادة على النزعة الجبرية الغلوسيمية Glossématique لهامسليف (1899-1965) Hjelmslev ،الذي اتجه إلى شكلنة متطرفة للغة، تزكية لتوجهات دي سوسير الذي استبعد الكتابة من الدرس اللغوي، مشككا في شهادتها، ومعتبرا إياها قناعا تنكريا داعيا إلى الانطلاق من الصوت في الدرس اللغوي، وهذا بحسب دريدا تكريس آخر لهيمنة نظام الصوت، وللامتياز المعقود للكلام في مقابل تهميش الخط والكتابة.

لقد ركزت البنيوية Structuralisme في أوائل القرن العشرين على اللغة المنطوقة، واتخذتها أساسا لبناء اللسانيات، ولذلك فإن اللساني دو سوسير وأتباعه، أعطوا الأفضلية في الدرس اللساني للغة المنطوقة، عازفين عن الشكل المكتوب الذي اعتبروه مجرد محاولة لتسجيل الأصوات المنطوقة، مثلما أشار دو سوسير إلى ذلك من أن الخدمة الحقيقية التي تقدمها لنا التصويتية، هي أن تسمح لنا باتخاذ بعض المحاذير، اتجاه هذا الشكل المكتوب الذي لا بد من اجتيازه وصولا إلى اللغة، وهو ذات الموقف الذي استقر أيضا مع لسانيين آخرين مثل سابير Sapir، وبلومفيلد(1887-1949)Bloomfield وغيرهما.

وإذا كان تصور مفهوم العلامة، كعلاقة تجمع المعنى بعنصر صوتي أو كتابي في عملية التواصل، فإن تناول دو سوسير لطبيعة الدلالة في كتابة " دروس في اللسانيات العامة"، انتهى إلى أن العلامة اللسانية هي *مجموع ما ينجم* عن ترابط الدال Signifiant بالمدلول Signifié.

أما مع دريدا، فتتقدم العلامة الخطية أو الكتابية Signe écrit، مخترقة الافق السيميائي، بما تتيحه من توليد مستمر في بعدها الدلالي بغياب المؤلف أو حتى بعد موته، فسيميوطيقا دريدا تنظر إلي" العلامات الخطية والصوتية [على السواء] بوصفها أبنية خلاف تتحدد

بواسطة رسوم وآثار غائبة توضع تحت ممحاة"(كيرزويل، 1986، ص243)، ومفككة مقولات الحضور غير المتناهي للزمن، التي تتجسد في الكلام بوصفه إطارا للحضور، والهوية والوحدة والبداهة على حساب الكتابة، بوصفها إطار للغياب والتعدد والاختلاف. وهذا الوضع، خلق الظروف لجدالات تأصيلية للتداخل القائم بين الحقيقة الصوتية والعلامة الخطية.

من خلال التأسيس للاختلاف داخل اللغة، ومحاولة استعادة دور الكتابة والعلامة الخطية بهدف بلورة علم للكتابة أو الوجود المكتوب ، يقوم دريدا بتفكيك مفهوم العلامة اللسانية عند دو سوسير، منتقدا الإقرار بوجود مدلول متعالي: مدلول، مصطلح، نويم(Signifié, Concept, Noème)، وهذا المدلول المتعالي الذي اعتبر سابقا للدال وجوهريا في الدلالة تبعا للامتياز الميتافيزيقي الذي يرى أن الصوت هو أقرب ما يمكن من المدلول، بعكس الدال الذي لا يعلب إلا دورا ثانويا، لهذا يعتقد دريدا أن الإهمال التقليدي للكتابة، نتج عن النفور الفلسفي والميتافيزيقي من الطابع الخارجي المرئي المجسد للكلمة المكتوبة.

سعت الميتافيزيقا الغربية، إلى تقزيم الدال والاستخفاف من دوره، ومن ثم التقليل من شأن الكتابة والعلامة الخطية، مقابل تركيزها على المدلول ومثالية الصوت المنضوي تحته، إذ إن تاريخ الدلالة هو تاريخ إعلاء من شأن المدلول، واعتبار الدال الكتابي مجرد سبيل عارض يتم العبور عليه للوصول إلى المعنى Sens.

لهذا السبب، يعتقد دريدا أن الغراماتولوجيا ليست في حاجة إلى نجدة من اللسانيات لأن الكتابة والعلامة الخطية تفتح الوعي على العلامة من حيث أنها قدرة ثورية. واللسانيات ذاتها، كعلم تكونت على فرضيات ومسلمات ميتافيزيقية بمقابلة الكلام والكتابة، ليصبح الامتياز المعطى للصوت عندئذ، هو هذه الوحدة التلفظية للصوت والمعنى داخل منظومة الصواتة، بينما اعتبرت العلامة الخطية التصويرية، كشيء يخرق هذه الوحدة فهي خارجية ومادية، ولا تعمل إلاّ كزائدة تأتي لتكرير المدلول الصوتي أو كما عبر عنها من قبل أرسطوAristote، وروسوRousseau وهيجلHegel، من أنها *علامة لعلامة Signe de signe* .

6-خاتمة:

تظل اللسانيات بحسب دريدا، من هذه الناحية، مؤسسة على التناقضات ومنطق التقابلات الميتافيزيقية، التي تقصي الكتابة من الدرس اللغوي، ما يفسر تواطؤ وانزلاق دوسوسير السريع في انتقائه للكتابة الصوتية، التي هي، كتابة طيعة تتماشى وفرضيات اللسانيات المتمركزة على الصوت، على خلاف العلامات الخطية التي تكون بمثابة الأساس الجديد الذي يرتكز إليه مفهوم الكتابة، سيما وأن النظريات المعاصرة حول العلامة أصبحت لا تنظر" في الكيانات اللسانية وحدها بل وأيضا في الدلالات غير اللفظية "(تودوروف، 2000، ص23).

لذلك، نجد أن كتابة غير صوتية مثل الكتابة الطبيعية أو التصويرية pictographique، هي كتابة مناقضة ومحرجة لما كان يرجوه دو سوسير ومعظم ممثلي اللسانيات وعلماء اللغة التقليديين، لأن مثل هكذا كتابة تفلت من نظام مركزية الصوت، تمثل تهديدا للأسس الإبستيمية والميتافيزيقية التي انبنت عليها الكتابة الابجدية. غير أن دريدا ينبه أن لا وثوقية موجودة بين حدود الكتابات الصوتية وغير الصوتية، وأن على نظرية اعتباطية العلامة كما جاء بها دو سوسير" أن تتجاوز التفرقة الساذجة بين العلامة اللسانية والعلامة الخطية"(مهيبل، 2007، ص269). ويرى دريدا أن الحضور والغياب الذي تسمح به العلامة الخطية في أفق الأنساق الكتابية الممكنة يبين عدم كفاية العلامات ونقصها، ويكشف في الوقت ذاته عجز العلامة اللسانية عن تحقيق الامتلاء المحكوم بحضور مطلق.

- قائمة المصادر والمراجع:

ا-المصادر:

1- Derrida, Jacques, (1967), ***l'écriture et la différence***, paris, édit : Seuil.

2- Derrida, Jacques, (1967), ***de la Grammatologie***, paris, édit : minuit.

3- Derrida, Jacques, (1967) ***La voix et le phénomène***, paris, édit : PUF, 1ère édit.

4- Derrida, Jacques, (1972), ***marges de la philosophie***, paris, édit : minuit.

5- Derrida, Jacques, (1972), ***la dissémination***, paris, édit : seuil.

6- Derrida, Jacques, (1990), ***Limited Inc***., paris, édit : Galilée.

7- دريدا، جاك، (1988)، ***الكتابة والإختلاف***، ترجمة، كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.

8- دريدا.جاك، (1998)، ***صيدلية أفلاطون***، ترجمة: كاظم جهاد، تونس، دار الجنوب للنشر.

ب-المراجع:

9- دو سوسير، فرديناند، (1986)، ***محاضرات في الألسنة العامة***، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة.

10- تودورف وآخرون، (2000)، ***المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث***، ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، دار افريقيا الشرق.

11- كوفمان، سارة وروجي لايوت، (1994)، ***مدخل إلى فلسفة جاك دريدا***، ترجمة: ادريس كثير، عز الدين الخطابي، الدار البيضاء، دار افريقيا الشرق.

12- غيوة، فريدة، (2002)، ***اتجاهات وشخصيات في الفلسفة المعاصرة***، الجزائر، شركة الهدى.

13- كيرزويل، إديث، (1986)، ***عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو***، تر: جابر عصفور، الدار البيضاء، دار قرطبة.

14- مهيبل، عمر، (2007)، ***البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر***، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

15- ياسبرز، كارل، (1988)، ***عظمة الفلسفة***، ترجمة، عادل عوا، بيروت، منشورات عويدات.

16- Ramond, Charles, (2001), ***Le vocabulaire de Derrida***, paris, édit : ellipses.

17- Jakobson Roman, (1976), ***six leçons sur le son et le sens***, paris, édit : minuit.

18- Sapir, Edward, (1968), ***linguistique***, trad : Jean-Elie et Nicole Souté, paris, édit : minuit.